# الانحراف العقدي في الأدب

## قصيدة «الناس في بلادي» لصلاح عبدالصبور أنموذجا

أسماء أحمد عناقرة - ماليزيا

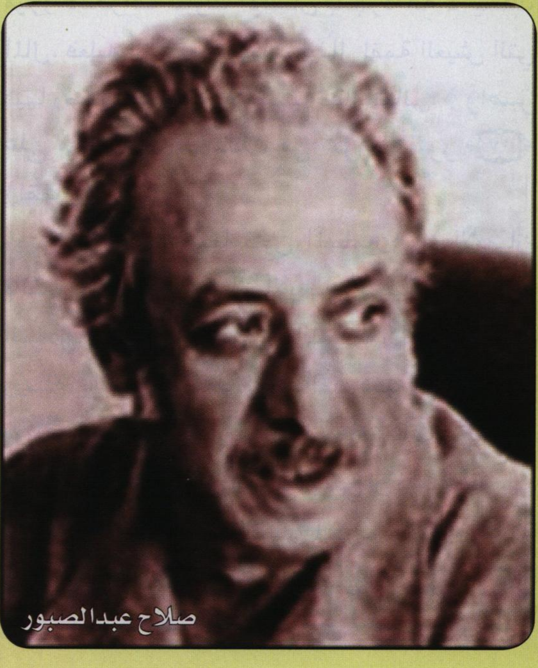
**إن المذاهب الغربية التي نشأت في أوروبا - كلاسيكية ورومانسية ورمزية ووجودية وواقعية وغيرها - ظهرت نتيجة للأوضاع الدينية والاجتماعية والفكرية والسياسية والاقتصادية التي شهدتها أوربا، فهي تعبر عن عقيدة الإنسان الغربي وصراعاته النفسية والاجتماعية والفكرية، وما يعانيه من ضياع وخواء روحي، لتعقُّد ديانتهم بسبب ما نالها من تحريف، وطغيان رجال الكنيسة الذين جاؤوا باللادينية التي انبثقت منها جميع المذاهب المادية التي أنكرت وجود الله، ونظرت إلى الإنسان والحياة نظرة مادية بحتة، وغالت في تعظيم الإنسان والعلم.**



«ومما يؤسف له أن التقليد الأعمى لهذه المذاهب، هو ما دأب عليه كثير من أدبائنا المعاصرين،...، فقد انقسم أدباؤنا بين المعسكر الشرقي والغربي، فأما الذين تحيزوا للعالم الغربي، فهم أمثال: عبد الوهاب البياتي، ومحمد الفيتوري، وعبد الرحمن الخميسي، ...إلخ، وهم الذين راحوا يجسدون أفكار الاتجاه الغربي، ويدعون من خلال مؤلفاتهم، وأعمالهم الأدبية إلى الالتحاق به»[1].

«بل إن النصرانية بعينها، قد دخلت وتربعت وسط المجتمع المسلم، ووجدت من أدبائنا من يدعو لها، من أمثال: صلاح عبد الصبور، وبدر شاكر السياب»[2]. وهم من الشعراء الذين تميزوا بقدرات فنية عالية.

«إن الاتجاهات الأدبية المتبناة من بعض أبناء المسلمين المستوردة من الخارج كثيرة جداً، أحياناً تكون إباحية، وأحياناً تكون رومنسية، اتجهت القضية في البداية إلى ترجمة أعمال الأدباء إن صح التعبير، فترجمت أعمال مشاهير الكُتّاب الغربيين من شكسبير إلى تولستوي للغة العربية، ونشرت بين المسلمين على أنها روائع في الأدب العالمي،...،ثم أتت حركة اللامعقول والكتابة الأسطورية،...، مستخدمين أسلوب العبث والضياع وفلسفته المستقاة من أساطير الرومان، فقلدهم بعض المنتسبين إلى الإسلام مثل طه حسين وتوفيق الحكيم وإحسان عبد القدوس ونزار قباني ونجيب محفوظ. وطالب بعضهم مثل سلامة موسى بفصل الأدب عن القيم الدينية، وبرزت الوجودية، والنظرية الوجودية في كتابات أنيس منصور، والاتجاهات الماركسية في أدب نجيب محفوظ، ونهج اللامعقول؛ وهي فكرة الحداثة التي ثارت حولها ضجة كما هو في شعر بدر شاكر السياب وأدونيس وغيرهما، هذه الحداثة أو هذه الكتابات الفوضوية التي ليس لها خطام ولا زمام»[٣].


صلاح عبدالصبور

فديننا ومعتقداتنا وتاريخنا الإسلامي، وظروفنا الاجتماعية وأحوالنا النفسية تختلف كل الاختلاف عن الغرب، لأن أيدي التحريف لم تنله، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ (الحجر)». وهو دين سهل وواضح، الحلال فيه بيِّن، والحرام فيه بيّن، ولا وساطة بين الخالق وعبده، فلماذا ننحرف عنه، وننقم على الدين مثلهم؟!.

ومما لا شك فيه؛ أن الأديب المسلم يلتزم بدينه الإسلامي، فهو مسؤول أمام الله جل وعلا، في أفعاله وأقواله، وسيحاسب حسابا عسيرا إذا انحرف عمَّا جاءت به عقيدته الإسلامية؛ قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾ (المؤمنون).

وعلى هذا فإن العقيدة الإسلامية، تسعى إلى ما يريد الإسلام تحقيقه للإنسان المسلم؛ إذ تهتم بالفرد المسلم الذي يؤمن بالعلم ويشجعه، إلا أنه - قبل كل شيء - إنسان عابد صالح، مهمته العليا عبادة الله، فقد حُمّل مسؤولية عظيمة «هي مسؤولية الاستخلاف وعمارة الأرض وإصلاحها، وحين يخون الإنسان هذه الأمانة، ويميل إلى الفساد، يحق عليه القول»[٤]. قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ۝١١٥ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ۝١١٦ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ۝١١٧ وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ۝١١٨﴾ (المؤمنون).

## الانحراف في قصيدة «الناس في بلادي» لصلاح عبد الصبور

يقول صلاح عبد الصبور في المقطع الأول من قصيدته:

**الناس فى بلادي جارحون كالصقور**
**غناؤهم كرجفة الشتاء، في ذؤابة الشجر**
**وضحكهم يئز كاللهيب في الحطب**
**خُطاهُمو تريد أن تسوخ في التراب**
**ويقتلون؛ يسرقون؛ يشربون؛ يجشؤون**
**لكنهم بشر**
**وطيبون حين يملكون قبضتي نقود**
**ومؤمنون بالقدر**

استخدم الشاعر عنصر التشبيه، للدلالة على الوضع المأساوي الذي يعيشه «الناس في بلاده»، فقد أورد لنا ذكر الصقور الجارحة، بشراستها ووحشيتها، للربط بينها وبين هؤلاء الناس الجياع. فقد احتوت الأبيات السابقة على إشارات ورموز واضحة تعبر عن النقد والسخرية والاستهزاء. لتكون طريقا إلى ترويض القارئ على تقبّل الآتي من الأفكار المنحرفة دينيا، وكأنه يريد أن يهيئ المتلقي نفسيا لتصديق معتقداته الدينية، من خلال إشراك القارئ في الحالة الاجتماعية البائسة التي يعيشها معظم الناس.

غناؤهم عبارة عن أصوات ترتعش وترتجف؛ كاهتزاز أوراق الشجر في مهب الريح شتاء، وهذا دليل على ضعف حيلتهم. أما ضحكهم فيبين شدة ألمهم وعذابهم الذي لا ينتهي، فضحكهم مرتفع كارتفاع اللهيب عند احتراق الحطب، وخطاهم تريد أن تغوص في التراب وذلك من شدة التعب والهوان.

ويعبر استخدامه للأفعال المضارعة «يقتلون، ويسرقون، ويشربون، فيجشؤون» عن استمرارية الحال، ويبحث صلاح عبد الصبور عن مسوغ للأفعال المرفوضة شرعا لهؤلاء الناس، بقوله «لكنهم بشر» أي إنهم غير معصومين عن الخطأ، وأنهم مجبرون على فعل كل هذه التصرفات القبيحة ؛ لأن الجوع هو من قادهم إلى ذلك. ونسي دعاء إبراهيم لربه عندما قال:﴿ ... رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ... ﴿١٢٦﴾ (البقرة). فنرى سيدنا إبراهيم يدعو لأهل بلده بالرزق والأمن، وهذا يدلّ على قوة إيمانه برب واحد قادر على وهب الطمأنينة لمن يشاء. وهو العنصر الذي افتقده الشاعر «صلاح عبد الصبور».

تشتد السخرية عند الشاعر في هذا المقطع، بتصوير حال «الناس في بلاده» فهم ككل البشر تمتلكهم الطيبة ويؤمنون بالقدر عند استلام النقود فقط. وقد أخطأ الشاعر في تعميمه لهذا الأمر، حيث إن هناك من يؤمن بالقدر في السراء والضراء، ولا مبرر لانحراف سلوك الإنسان بمجرد أنه لا يمتلك المال، فعليه أن يسعى ويكابد لينال لقمة العيش التي فيها رضى الله تعالى، لا غضبه. قال تعالى:﴿ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴿١٧﴾ (لقمان).

وكما نعلم جميعا نحن المسلمين؛ أن الإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان الستة، قال عليه السلام:«الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقَدَر خيره وشره» رواه مسلم. «والإيمان بها يعني أنها حقائق ثابتة يقينية لا سبيل للشك فيها، والإيمان بها يعني أن نؤمن بها على صورتها التي وردت في القرآن الكريم والسنة الثابتة الصحيحة، وهذا ما يعطيها تصورا مميزا عن كل ما عداه من التصورات الأخرى»[5] . وقد نبه الله

الغافلين عنها، بقوله تعالى: «﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ (يونس).

ويجانس عبد الصبور في بقية القصيدة بين شخص خيالي اسمه مصطفى. والرسول المصطفى عليه أفضل الصلوات والسلام. معتمدا في اختياره لهذا الاسم تأطير قصيدته بطابع ديني -بتركيزه أن هذا الرجل يحب المصطفى «محمدا عليه السلام» - ليوظفه بعد ذلك مع الأسف بطريقة لا دينية. يقول:

وعند باب قريتي يجلس عمي (مصطفى)

وهو يحب المصطفى

وهو يقضّي ساعة بين الأصيل والمساء

وحوله الرجال واجمون

يحكي لهم حكاية.... تجربة الحياة

حكاية تثير في النفوس لوعة العدم

وتجعل الرجال ينشجون

ويطرقون

يحدقون في السكون

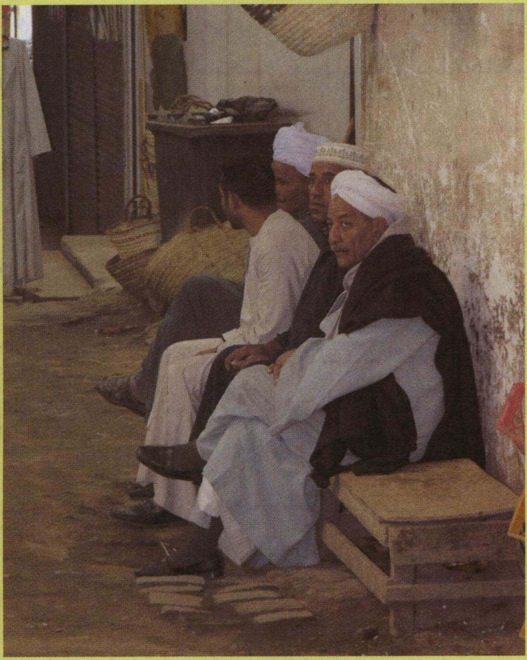
فى لجة الرعب العميق والفراغ والسكون

«ما غاية الإنسان من أتعابه؟ ما غاية الحياة؟

يا أيها الإلـه !!

فهذا البطل مصطفى، يجلس بصورة دائمة عند مدخل الباب، ويمضي ساعة كل يوم قبل المساء؛ ليحكي للرجال من حوله حكاية حياته وتجاربه، كما كان الناس يجتمعون حول نبينا الكريم، ليبوح لهم بأسرار دينهم الحنيف، وحثهم على الإيمان بكل ما يُقدّره الله تعالى لهم من نعمة أو نقمة، لاختبار قوة إيمانهم وصبرهم وتصديقهم للدين الإسلامي.

لكن الأمر في قصيدة صلاح عبد الصبور اتخذت طريقا مغايرا تماما؛ فـ «مصطفى» هنا يقود مجموعة من القرويين، يتناقشون في موضوعات مختلفة عن



تجارب الحياة. فتؤثر تلك النقاشات فيهم، مما يجعلهم يبكون، ويطرقون، ويحدقون في السكون، فيعتريهم الرعب من الموت، الذي يؤول بالإنسان إلى الفراغ والسكون؛ ثم يتساءلون: ما غاية الإنسان من أتعابه؟ ما غاية الحياة؟..... يا أيها الإلـه!!.

مثل هذه العبارات التي تصدر عن أديب مسلم، هي في حقيقتها مسيئة لعقيدتنا الإسلامية؛ التي لطالما آمن بها أصحابها، فغاية خلق الإنسان هي؛ طاعة الله تعالى وعبادته. ونجد أدلة قرآنية كثيرة بهذا الصدد، نذكر منها، قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ (النور). وقال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ (الذاريات).

إن تأثر صلاح عبد الصبور بالغرب واضح جدا في قصيدته هذه، فقد بلغ به الانحراف العقدي إلى الشك في سبب وجود الإنسان على هذه الأرض، ومن

ثم إنكاره للخالق. إلى أن وصل الأمر به إلى تلويم الله تعالى بجرأة دون استحياء، ويخاطبه كأنما يخاطب إنسانا مثله.

الشمس مجتلاك... والهلاك مفرق الجبين
وهذه الجبال الراسيات عرشك المكين
وأنت نافذ القضاء... أيها الإله!
بنى (فلان) واعتلى، وشيّد القلاع
وأربعون غرفة قد ملئت بالذهب اللماع
وفي مساءٍ واهن الأصداء جاءه عزريل
يحمل بين أصبعيه دفترا صغير
وأولُ اسم فيه ذلك الفلان
ومدّ عزريل عصاه
بسرّ حرفيْ (كن) ؛ بسر لفظ (كان)
وفي الجحيم دُحرجت روح فلان......»
(يا أيها الإله
كم أنت قاس موحش يا أيها الإله)

في المقطع السابق؛ تطاول واضح على كل ما هو قائم على الثوابت التي يؤمن بها الإنسان المسلم، فالشاعر يخاطب الله سبحانه وتعالى، على أنه غير عادل فيما يخص حياة الإنسان؛ لأن الهلاك مصيره لا محالة، فلماذا يعمل ويجتهد إذا كانت حياته فانية؟

فالله تعالى - في نظر الشاعر - يرسل عزرائيل ليقبض الأرواح التي كُتبت في دفتره الصغير، ويبدأ بمن تعب وكدّ في حياته بجمع المال والذهب. فماذا يفعل عزرائيل يمد عصاه دون رأفة منه لسحب أرواح هؤلاء الناس وإلقائهم في الجحيم بأمر من الله القاسي الموحش، تعالى الله عما يصفون. وهنا استهزاء بذات الله وأنبيائه.

لقد تغاضى صلاح عبد الصبور، عن صفات الله تعالى المتميزة بالعدل والحكمة، وأن عزرائيل كغيره من المخلوقات التي تخضع لطاعة رب الكون جميعا. قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ (النحل).

فأين التزام هذا الشاعر المسلم الذي يتعالى على خالقه، ويتمرد تحت غطاء الحرية التي ابتدعها الغرب!. ولا بد من التنويه في هذا المجال؛ أن الأدب الإسلامي أدب هادف ملتزم، ولا يتصور وجود مثل هذا الأدب دون التزام، فالأديب المسلم يجب أن يؤمن بدينه؛ فالإسلام «ليس كلمة تنطق باللسان فحسب، وليس وجدانا مستترا في الضمير فحسب. بل هو منهج حياة كامل، يشمل كل جوانب الحياة العقدية والأخلاقية والفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والقولية والعملية، ويُضبَط كل ذلك بالضوابط الربانية، فيقوم الناس بالقسط»[٦]. فالأديب المسلم محاسب أمام الله جلَّ وعلا، في أفعاله وأقواله، ويجب عليه أن يحرص على دينه وشريعته، لا أن يخونها ويُشمّت الأعداء بها. بل عليه أيضا أن يكون فاهماً لحقيقة هذا الإسلام؛ لا أن يكون إسلامه اسماً بالهُويّة فقط. لذلك خص الله تعالى الشعراء، بقوله: ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾ (الشعراء)، وهذه الآيات الكريمة تعني أن الشعراء سيكونون دائماً عرضة للغواية والإغواء إلا أن يلتزموا بالصفات الآتية:

١: أن يكونوا مؤمنين حقاً: «إلا الذين آمنوا».

٢: أن يكون إيمانهم مصدقاً بالعمل الصالح :«وعملوا الصالحات».

٣: أن يكثروا من ذكر الله حتى تتحقق فيهم تقوى الله :«وذكروا الله كثيراً».

٤: وأن يكون شعرهم سلاحاً ينتصرون به من الظلم:«وانتصروا من بعد ما ظلموا».

وهذه السمات الأربع التي تميز الشعراء المؤمنين؛ هي التي تحدد التزامهم بالإسلام قولاً وعملاً، وهي التي تجعل الشعر سلاحاً بأيدي المؤمنين[٧]. لا ما فعله شاعرنا هذا في أبياته تلك.

يقول صلاح عبد الصبور:

بالأمس زرت قريتي... قد مات عمي مصطفى
ووسّدوه في التراب
لم يبتن القلاع (كان كوخه من اللبِن)
وسار خلف نعشه القديم
من يملكون مثله جلباب كتان قديم
لم يذكروا الإله أو عزريل أو حروف (كان)
فالعام عام جوع
وعند باب القبرقام صاحبي خليل
حفيد عمي مصطفى
وحين مدَّ للسماء زنده المفتول
ماجت على عينيه نظرة احتقار
فالعام عام جوع...[٨].

تنتهي القصيدة بموت البطل مصطفى، ويعمم الشاعر كيف أن كل رحلة حياة تنتهي على وتيرة واحدة هي الموت الذي يُشعر الناس باحتقار الحياة وإذلالها لهم، فيعطي الشاعر مثالا من ذلك، عندما يصف مشاعر خليل حفيد العم مصطفى،حين مد للسماء زنده المفتول ماجت على عينيه نظرة احتقار. فالموت جعل هؤلاء الناس يشكون في رحمة إلههم وذلك لضعف إيمانهم وتصديقهم به. وبكتابه الحكيم الذي



تضمن قوله تعالى:﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾(الأنبياء ٣٥) ■

الهوامش:

(١) أحمد حسين، نصر الدين إبراهيم، الأدب الإسلامي: دراسة نظرية وتطبيقية، ص٥٦.
(٢) المصدر نفسه: ص٥٦.
(٣) المنجد، محمد صالح، خطورة الولاء الفكري لأعداء الله. http://www.alsalafway.com/cms/news.php?action=news&id=١٢٧٢ بتصرف.
(٤) الأمراني، حسن، أدب الدعوة- رؤية تأصيلية، مؤتمر الأدب الإسلامي في خدمة الدعوة، القاهرة، ٢٥-١٩٩٩/٦/٢٧م، ص٢٢٧.
(٥) علي، أحمد محمد، الأدب الإسلامي ضرورة، دار الصحوة، القاهرة، ط١، ١٩٩١م، ص٧٢.
(٦) قطب، محمد، العلمانيون والإسلام، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٩٩٤، ص٩٥.
(٧) مظاهر الالتزام في الأدب، الموقع الإلكتروني: http://www.dgelfa.info/vb/showthread.php?t=٤٩٩٠٨
(٨) عبدالصبور، صلاح: ديوان الناس في بلادي، دار الشروق، ط٦، ١٩٨١م، ص١٩-٢١.